الأستاذ فقير محمد راسم دروس في مدارس ومناهج السنة الأولى علوم انسانية

تقديم:

إن كلمة طريق أو "منهج" مستعارة من الكلمة اللاتينية Méthodus المستعار هو بدورها من الكلمة الإغريقية التي تعني طريق اتجاه يؤدي إلى تحقيق هدف، في بداية الأمر مصطلح "منهجية" تم إدراجه في الطب حوالي سنة 1537م، أين كانت تعني طريقة خاصة في تطبيق علاج طبي، وفي سنة 1637م **"رونيه ديكارت"** قدم معنى للمنهجية: طريقة القيام بالعلم أو اتخاذ تفكير علمي .

عموما فإن مفهوم المنهجية تداوله العديد من المؤلفين والمفكرين، أشهر تعاريفها نجد ما يلي :

- تعريف **موريس أنجرس** أين عرفها أنها مجموعة المناهج والتقنيات التي توجه إعداد بحث ما وتدله إلى مسار علمي.
- بينما عند **بونوا غوتي** (**Bounoit Ghauthier**) المنهجية هي طريقة لمواجهة الأفكار الصادرة من التجربة والخيال والمعطيات المجسدة المنبثقة من الملاحظة لغرض التأكيد والتدقيق أو رفض الأفكار المسبقة.
- لغرض التفصيل في سيرورة المنهج العلمي سنتطرق في الصفحات اللاحقة إلى عرض أهم المدارس المنهجية الكبرى في العلوم الإنسانية وإشكاليات العلم والديني، العلم والسياسة والإديولوجيا وفق منظور ابستيمولوجي، تليها بعد ذلك سنقدم أهم خطوات البحث العلمي، تحديد مشكلة البحث وطريقة إعداد البطاقات التقنية وملخصات الكتب العلمية وشرح كيفية طرح الإشكالية وصياغة الفرضيات وتحديد العينة، نخلص في نهاية المطاف إلى الجانب الإجرائي في المنهجية يتعلق الأمر بتقنيات جمع المعطيات، الاستمارة والمقابلة.

المدرسة الوضعية: علمية وموضعية العلوم الانسانية

1- هربرت سبنسر:

يعود أصل المنهج التجريبي إلى العلوم الطبيعية أين كان يمارس على الأشياء المادية Les objets Materiales باعتبار أن التجربة على الأعضاء البشرية والانسانية كان محضورا وممنوعا من طرف الكنيسة لان الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن هذا المنهج غير صالح للإهتمام بالإنسان، لكن وبفضل الطب في العلوم المرتبطة بهذا التخصص بدأ المنهج التجريبي يمتد تدريجا إلى دراسة الأحياء ثم إلى دراسة الإنسان بصفة خاصة، بعد الفزيولوجي Claude Bernard(1878-1813) الذي قام بصياغة القواعد الأساسية في كتابة : " مقدمة لدراسة الطب التجريبي " 1865، تلاها بعد ذلك علم النفس الذي ارتبط بالفزيولوجيا أين تم خلق أول مخبر علمي في علم النفس في ألمانيا سنة 1879 ثم جاءت بهد ذلك أعمال الفزريولوجي الروسي Ivan Pavlov (1849-1936) التي كرست المنهج التجريبي وثيقته في دراسة الكائنات الحية يهدف تغيير سلوكاتها، وفي ميدان العلوم عرفت العلوم الدقيقة تطورا كبيرا مثلا: ظهور الهندسة Geometries بفضل الروسي Lobachevski(1793-1856) والألماني Riemann،و تأسيس علم الفزيولوجيا مع Louis Pasteur (1822-1896) و Claude Bernard (1813-1878)، ثم البيولوجيا مع Darwin (1809-882)، بعد ذلك الكمياء العضوية مع Berthelot (1827-1907)، وأيضا اكتشاف الراديو مع Pierre Marie curie [1].

أما استعمال المنهج التجريبي في العلوم الانسانية جاء كنتيجة منطقية لإنجازات العلمية التي حققتها العلوم الطبيعية في المجالات السابقة الذكر وغرض تعميمها إلى العلوم الانسانية بداية مع Herbert Spencer (1820-1903) الذي كان أول من حاول تطبيق نظرية التطور البيولوجي على الحياة الاجتماعية في كتابه المعنون ب: "مبادئ علم الاجتماع" الذي نظر فيه إلى

[1] - Djamel Guerid, L'Entrée en sociologie les limites de l'universel européen, ED, PUBLISUD, 2013, P45

المجتمع ككائن عضوي تتحول فيه الأشياء المتجانسة إلى الأشياء متغايرة ومختلفة، كل منها يختص بأداء وظيفة معينة تختلف عن الوظائف الأخرى، يقول سبنسر بأن الأفراد في المجتمع يتصلون فيما بنهم ويشكلون المجموع الكلي المتكون من علاقاتهم المتشكلة والمتداخلة، وهذا المجموع الكلي هم المجتمع وهو عضوي Organic أي يشبه الكائن العضوي من حيث الوظائف على اعتبار أن الكائن يتألف من أجهزة متداخلة وكل جزء أو جهاز يقوم بوظيفة تتكامل مع وظائف الأجهزة الأخرى[2]، تعتبر النظرية التطورية لسبنسر التي استلمها من داروين أن الكائنات الحية قد خضعت لعملية تغير وتطور تحت تأثير عوامل طبيعية وأدت هذه العملية إلى موت وانقراض حيوانات لضعف تكوينها البيولوجي ولكن حيوانات أخرى استطاعت التكيف والصراع من أجل البقاء وحسب هذه النظرية فإن الكائنات الحية مرت بمراحل خلال تطورها من الأشكال البسيطة البدائية إلى الأشكال الأكثر تطورا وقد تأثر سبنسر بفكرة التطور وراح يسقطها لدراسة المجتمعات البشرية، هذه الأخيرة التي بدأت في شكلها الأولي عبارة عن جماعات معتبرة ومتجزأة "Hordes"لها نفس المستوى الثقافي ولاقتصادي والاجتماعي، هاته المجتمعات يطلق عليها سبنسر بالمجتمعات المتجانسة SocietéHomogéne التي سادت المرحلة العسكرية والاقطاعية التي مر بها المجتمع البشري، بعدما تطورت هذه المجتمعات وخضعت إلى تقسيم العمل الاجتماعي بفعل الثورة الصناعية تحولت إلى مجتمعات معقدة ومتطررة يطلق عليها سبنسر بالمجتمعات المتغايرة أو غير متجانسة Les Héterogene societés التي تسود المجتمعات الصناعية[3].

[2] -H.Spencer, Principes de sociologie, E Alcan, Paris, 1891, P700.

[3]- داروين تاشرلنز، أصل الأنواع، ترجمة: إسماعيل مظهر، منشورات مكتبة النهضة، بيروت، 1971، ص 20.

2- أوغست كونت:

بالإضافة إلى هربرت سبنسر يوجد العديد من المفكرين والفلاسفة والمهندسين الذين حاولو ارساء المنهج التجريبي في العلوم الانسانية والاجتماعية أمثال أوغست كونط، وإميل دوركايم، سان سيمون أو ما يطلق عليهم بالوضعيين: Les Positivists رواد المدرسة الوضعية أوغست كونط الذي يعتبر أول من اصطلح اسم علم الاجتماع سنة 1839 بعدما أطلق عليه في بداية الأمر بمصطلح الفزياء الاجتماعية بمعنى علم الذي يدرس المجتمع بنفس الطرق العلمية والتقنيات المستخدمة في العلوم الدقيقة والطبيعية: الملاحظة: التجربة، السببية ، الموضوعية والحياد العلمي، من خلال كتاباته الأكاديمية: "محاضرات في الفلسفة الوضعية Cours de Phlosophie Poitive"دراسات الفلسفة الاجتماعية "Copuscules de pholosopie Sociale" التي ظهرت خلال الفترة الممتدة ما بين 1819 إلى 1829، دعى إلى اصلاح اجتماعي للقضاء على حالة الفوضى الاخلاقية التي سببتها الثورة الفرنسية السياسية التي تمكنت من القضاء على النظام القديم بامتياز إلا أنها عجزت في إعادة بناء المجتمع الفرنسي الأمر الذي أدى إلى شيوع اضطرابات وعنف دموي، للخروج من الحالة الفوضى اقترح كونط فلسفة وضعية وفكرية هدفها خلق تضامن اجتماعي يعوض القيم الدينية التقليدية للكنيسة، هذه الفلسفة تتألف من المبادئ والافكار المبينة على العلم حتى يقبلها الناس فيتوحد تفكيرهم.

بالمقابل ذلك فقد اهتم كونط تصنيف العلوم وترتيبها حسب الأهمية والتعقيد نزولا وصعودا إلى ستة أصناف: الرياضيات، الفلك الفيزياء، الكمياء، البيولوجا، والسوسيولوجيا[4].

[4] -Michel Lallement, Histoire des idées sociologique des origines , O. Weber, 2eme ED, Nathan, 1993, PP 52-55.

ما يمكن استخلاصه من وضعية كونط انها تفسر الظواهر الاجتماعية و معرفة قوانينها دون الخوض في عللها الاولى والميتافيزيقية الغيبية، لأن الوضعية هي المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل تطور الفكر البشري، بعدها مر بالحالة الآهوتية، الحالة الميتافيزيقية ثم الحالة الوضعية.

3-إيميل دوركايم:

إيميل دوركايم هو بدوره حاول إرساء علمية العلوم الاجتماعية والانسانية في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع، 1895، أين أولى فيه اهتماما خاصا بما يسميه بالواقعة الاجتماعية Fait socialالتي حددها مميزاتها على النحو الآتي:

- اعتبار الظاهرة الاجتماعية كشيء مادي ملموس قابل للملاحظة والقياس والتجربة.
- مبدأ القدرة أو الحتمية الاجتماعية بمعنى أنها لا تترك حرية الاختيار للفرد.
- الواقعة الاجتماعية هي موجودة قبل وجود الفرد وخارجة عن الوعي وضمائر الأفراد مثل الدين اللغة – القانون...
- الظاهرة الاجتماعية لها نوع خاص suisgenerisللدلالة على تميز الجماعي عن الفردي[5].

3- فريديريك لويلاي:

لقد كان لفريدريك لوبليF.leplay أيضا اعتقاد بتأسيس علوم اجتماعية موضوعية شبيهة بعلم المعادن . في كتابه الشهير العمال الأوربيين" 1855 "Les ouvries Europieen" يقول: "لقد طبقت في ملاحظة المجتمعات الانسانية قواعد شبيهة بدهنيتي في دراسة المعادن والنباتات"، حرصا منه على تطبيق المنهج والطريق العلمي في الظاهرة الاجتماعية قام Leplayبدراسة سوسيوغرافية حول العائلات العمالية الأوربية وطبيعية اقتصادهم المنزلي، عمم في هذه الدراسة ثلاثة مبادئ منهجية:

[5]- إميل دوركايم، قواعد المنهج السوسيولوجي، ترجمة سبعون، الجزائر، دار القصبة للنشر ، 2008، ص 30.

1-ملاحظة الوقائع

2-مسائلة العمال

3-إتمام المعلومات بواسطة الشهادات التي يقدمها الشخصيات المحلية.

على غرارLeplay، باريتو Paretoأراد تشكيل علم حيادي لتحرير العلوم الانسانية والاجتماعية من الفلسفة والأدب يقول في هذا الصدد في خطابه يوم 06 جويلية 1917 بجامعة لوزان، Lausanneبمناسبة تشريف بلوغه 25 سنة من التعليم قائلا: "... إن الهدف الأساسي من دراساتي كان دوما تطبيق المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية الذي حقق نتائج باهرة في العلوم الطبيعية" ، ويقول أيضا: " ألاحظ الظواهر الاجتماعية مثلما يتم ملاحظة الظواهر الفلكية"[6].

من بين الرواد الذين ساهموا في إرساء علمية العلوم الاجتماعية نجد أيضا "أودولف كتليه A. quetelet" الذي اهتم في كتابه " محاولة في الفيزياء الاجتماعية " Essai de physique sociales" بتطبيق الاحصاء في ميدان الحياة الاجتماعية وهو مؤسس ما يسمى بالهندسة الاجتماعية "sociale Lingénerie"التي تهتم بنشر احصائيات اجتماعية حول الجريمة لتفادي الثورات، فالإحصاء حسبه ليس فقط للقياس بل وسيلة للرقابة الاجتماعية والأخلاقية، وبالتالي فإن كتليه يعتبر من الأوائل الذين قاموا بحساب نظريات الاحتمالات في الحياة الاجتماعية، شرحها في عملين علميين: العمل الأول عبارة عن مقال بعنوان " الإنسان ونمو قدراته" (1835) l.home et le devlopement de ses facultés العمل الثاني بعنوان: قياس البشري، أو قياس قدرات الانسان (1871) وهو أول من اتعمل مصطلح الفرد المتوسط أو الانسان المتوسط l'homme moyen بحيث قال أن بعض الحوادث الاجتماعية تتواتر بطريقة متظمة ويمكن شرحها بالطرق الاحصائية كالتوزيع التكراري[7].

[6] - Pareto. V, Revue d'économie politique, 1949, P548.

[7] - سامية حسن الساعاتي، الجريمة والمجتمع، دار النهضة العربية، ط2، بيروت 1983

III. الاثنوميدولوجيا:

لقد ظهرت في سنوات 1970 وبداية سنة 1980 حركة كبيرة مست المنهجية العلوم الانسانية والاجتماعية بالتخلي عن النظريات الكبرى (الوضعية الماركسية) ورفض المقاربات الشمولية والكمية بالتركيز على المعاش اليومي والنوعي للأفراد (أنتروبولوجية العلوم الجماعية) بظهور مصطلحات ومفاهيم ونظريات بديلة مثل: الاثنوميدووولجياEthnomethologie، الانتوبيغرافية الاثنية التاريخية، إن الثنوميتودولوجيا التي يقيد معناها مهج الدراسة الذي يركز على دراسة الجامعة، بحيث أن لفظ الاثنوميتودووولجيا مركب من لفظين إثنوEthno يعني جماعة، سلالة، عرق، وميثودولوجياmethodology يعني بها منهج بحث، والاثنوميتودولوجيا هو المصطلح الذي وضعه عالم الاجتماع الأمريكي " هارولد كار فينكل"H.Garfinkel، بحيث ترتكز الاثنومينودولوجيا على المعاني التي يقدمها الأفراد والناس على أفعالهم الاجتماعية ومواقعهم في الحياة اليومية وحالتهم الساذجة من خلال لغة الحديث اليومي لأن الاثنوميتودولوجيا تحمل معنى أكثر أنثروبولوجيا (دراسة المناهج اليومية والعادية للفعل الانساني والتفكير العملي) موضوعها ليس دراسة الوقائع أنها إنجازات فردية Les Accomplisement Individueles ، فالمنهج الانثنوميثودولوجي لا يؤكد على ضرورة القطيعة الابستمولوجية بين الأحكام المسبقة وعلم الاجتماع (دوركايم)، بين الحس المشترك و المعرفة العلمية (باشلار)، بين علم الاجتماع العفوي وعلم الاجتماع العلمي (بورديو) فالاثنوميثودولوجيا ترفض استخدام اللغة العلمية الشخصية وتفضل استخدام اللغة المتداولة بين الأشخاص في حياتهم اليومية، كما ترفض الطرق المستخدمة في البحث السوسيولوجي كالاستمارة والاحصاء[8].

عموما إن التغيرات التي مست مناهج وطرق العلوم الانسانية اقترنت وتزامنت مع الأزمة الكبرى وبؤس العالم (بورديو)La misére du monde التي عاشتها المجتمعات الأوربية، بعدما

[8]- GARFINKEL, H, Recherches en Ethnométhodologie, PUF, Paris, 2007, P 188-189.

عرفت رقيها خلال الفترة الممتدة ما بين 1945 و 1975 نهاية الحرب الفيتنام وإنهيار الاتحاد السوفيتي والأزمة البترولية. إن التيار الجديد للعلوم الإنسانية الذي ظهر في سنوات السبعينيات يتمثل في "البنيوية" التي تؤكد على أهمية الفرد في البيئة، يؤدي وظيفة محددة وبالتالي فإن الفترة الجديدة للعلوم الإنسانية هي إعادة إدراج الانسان كصانع و فاعل تاريخي أساسي ومحوري، التيار الجديد للعلوم الانسانية ظهر كردة فعل ضد الوضعية وأكاديمية العلوم الاجتماعية، هدا التيار حث على التحقيق في الميدان وتفضيل السيرة الذاتية والحياة اليومية للإنسان وتمثلاته وممارسته، هذا ما أطلق عليه كروزي وآلان توران بالعودة إلى الفاعل "la retour de l'acteur" أين تحول الإنسان إلى سيد ومالك لذاته[9].

IV. المدارس المنهجية الألمانية (الفينومينوولجيا ومدرسة فرانكفورت) نقد المدرسة الوضعية:

لقد وجه الفكر الألماني المعاصر بزعامة إدموند هوسرلHusserlوشوترSchutz، مارتن هيدغر Heidegger وفلاسفة مدرسة فرانكفورت (هوكهايمر، يورغن هابرماسHabermas، هربرت ماركوزMarcuseورواد الكانطية المحدثة فيلهلم ديلتايDilthey و H.Richert، جملة من الانتقادات إلى المدرسة الفكر الوضعي أهمها رفض دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس الطريقة التي تدرس بها الظواهر الطبيعية، رفض النظر إلى الظواهر الاجتماعية كأشياء ورفض التجريد والمناهج الكمية، لأنها مصاغة بلغة الباحث وليس بلغة الجماعة، لقد اعتبر الفلاسفة الألمان أن الظاهرة الطبيعية لها ظاهر فقط ولا تتضمن باطنا (روحا، أفكارا وقيما)) ولا تختلف باختلاف المكان ويمكن دراستها من الخارج، ولكن الظواهر الاجتماعية لها ظاهر وباطن (روح، مشاعر، قيم وتمثلات وخطابات وتختلف من مكان إلى آخر، ولهذه الاعتبارات فإن المنهج الذي يميز الانسان ليس وجوده المادي فحسب ولكن روحه، فالإنسان كائن دو بعدين: بعد مادي وبعد روحي.

[9] - Djamel Guerid , Opcit, P 189.

بناءا على ذلك فإن مفاهيم وقيم العدالة والحرية والتسامح والقيم الانسانية التي طالما دافع عنها فلاسفة للعقد الاجتماعي الذين عملوا على تحرير الانسان من العبودية والأوهام ، إذ لا يمكن أن يتحقق كل ذلك بما تدعيه الوضعية التي سالبت العقل كل العلاقة بهذه المفاهيم العلمية والتقنية، إلا أنه وفي خضم التطور الذي عرفته المجتمعات الانسانية والغربية على وجه الخصوص، سرعات ما تبين أن سيطرة الخطاب الوضعي واديولوجيته المهيمنة في العقل العلمي والاجتماعي قد تطور في خضم ذلك إلى خطاب علمي أداتي أو ما يسميه هوركمايمر " بالعقلانية الأداتية Rationalit2 instrumentale" وهي عقلانية علمية وضعية كرست السيطرة الشاملة على الانسان والطبيعة وتظهر أشكال التسلط والطغيان السياسي في بعض الانظمة السياسية كالنازية والفاشية والستالينية التي استندت إلى التقنية والعلمية في ممارسة هذا التسلط والطغيان، الأمر الذي أدى إلى خلق إنسان ذو البعد الواحد بتعبير " ماركوز هربرت"، الانسان الذي لا يقاوم ولا يثور على النظام القائم، لأن الكائن البشري حسب ماركوز له بعدان، بعد التكيف والتلاؤم والاندماج في النظام السياسي وبعد ثان هو بعد الحرية والمقاومة والثورة، لقد قام الانسان بثورة فكرية من أجل حريته واستطاع أن يتخلص من أنظمة العصور الوسطى ونفوذ الكنيسة ويقيم نظاما سياسيا ينهض على العقل ولكن هذا الانسان فقد حرية تحت وطأة النظام الرأسمالي[10].

وبهذا تقوم الفينومينولوجيا على عدم الفصل بين عالم المادة الخارجي وعالم الشعور والخبرات الذاتية، فإذا كان علماء الطبيعة يستعبدون عالم الشعور والتجارب الذاتية في دراستهم مثلما تدعوا إليه الوضعية، فإن المنهج الفينومينولوجي يجمع بين العالم الخارجي وعالم الشعور لأن العالم الخارجي هو غير منفصل عن التجارب الذاتية (هوسرل)[11].

ديلثايDilthey الفيلسوف الألماني الذي اشتهر بإقامة التفرقة بين علوم الطبيعة وعلوم الثقافة أو العلوم الانسانية الظواهر الاجتماعية، وقال أن الظواهر الأولى يمكن دراستها من الخارج

---

[10]– ماركوز هربرت، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت، دار الآداب، 1988، ص 167.

[11]– ادموند هوسرل، فكرة الفينومونولوجيا، ترجمة: فتحر انقزو، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص 84-85.

ومعرفة عللها الخارجية ولكن الظواهر الثانية لا يمكن دراستها من الخارج بل عن طريق الفهم لإدراك معانيها الداخلية والخفية، فموضوع علوم الطبيعة هي الوقائع وموضوع الثقافة هي المعاني، منهج الأولى هو التفسير ومنهج الثانية هو الفهم.

مدرسة فرانكفورت هي بدورها قامت بقطيعة ابستمولوجية مع المنهج الوضعي الذي اكتفى بتوجيه الفكر عند حدود التجريب وترتيب الوقائع وتصنيفها ورفع مكانة الموضوعية قصد الكشف عن القوانين والتنبؤ بمجرى الظواهر لذلك اتخذ مفكرو مدرسة فرانكفورت موقفا مناهضا للوضعية ونزعتها العلمية والتقنية، بحيث انتقد ماكس هوركماير في الثلاثينيات من القرن 20 النزعة الوضعة ضمن محاولته الكشف عن ثقافتها، لأنها تعامل البشر بوصفهم حقائق وأشياء مجردة داخل نطاق ومخطط من الحتمية الميكانيكية تتصور العالم كمعطى مباشر في التجربة فقط.

على هذا النحو، لاحظ يورغن هابرماس... في دراستين الأولى: العلم والتقنية كاديولوجيا، والثانية: معرفة و مصلحة .أن المعرفة العلمية والوضعية أصبحت مرتبطة بالحسابات، بحيث أعاب هابرماس على المنهج الوضعي اهتمامه المفرط بالمعرفة التقنية داخل دائرة النشاط الأدائي متجاهلا في ذلك نمط آخر من النشاط الانساني يسميه بالنشاط التفاعلي أو النشاط العقلاني، ذلك أن النشاط الأداتي (العمل) ليس هو وحده ما يميز الانسان ويجعله قادرا على تحويل الطبيعة والمجتمع، إذا إلى جانب العمل، نجد لدى الانسان قدرة على استخدام العلامات والرموز للتواصل مع غيره وخاصة اللغوية منها، انطلاقا من هذا يمكن القول أننا أمام تصورين العقلانية، الأول يتمثل في العقلانية الذاتية أو التكنولوجية كما سماها هابرماس وهي عقلانية ذات طابع معرفي-تقني، تتضمن القابلية لاستغلال الطبيعة والانسان.

أما الثانية أي العقلانية التواصلية فهي التي تنظم العلاقات بين الناس وتؤطر عملية التفاعل أفراد المجتمع وتصوغ فهم الجماعة لذاتها[12].

V. العلوم الانسانية بالجزائر بين أكاديمية وإيديولوجية المنهج:

لقد شهدت الجامعة الجزائرية في مسارها التاريخي عدة مراحل تأسيسية وتوجهات سياسية وخلفيات إيديولوجية، ففي المرحلة الأولى عرفت قلق أول مدرسة للطب سنة 1832 باعتبار أن الطب كان له وظيفة تكوين الأطباء في الجيش الفرنسي بإفريقيا، تليها بعد ذلك تأسيس أربعة مدارس عليا سنة 1909 يتعلق بالطب، الأدب، القانون والعلوم النفس السنة (1909 تحولت فيها المدارس العليا بالجزائر إلى جامعة في الذي كان فيه التعميم بالجزائر خاضع للجهاز المدرسي الفرنسي الذي تميز بانتقائية بحيث أن نسبة تمدرس الجزائريين في سنة 1890 لم يتجاوز نسبة 1.9%ونسبة 6% فقط سنة 1929، وفي سنة 1954 كان يتواجد حوالي 1000 طالب حاصل على الشهادة الجامعية من بينهم 354 محامي، 165 طبيب وصيدلي وجراح أسنان، 350 موظف من بينهم 185 أستاذ في الثانوية والمئات من رجال الأمن في الجيش الفرنسي وأقل من 30 مهندس، بينما تعليم العلوم الاجتماعية كان مقتصرا فقط بالعاصمة وبعد الاستقلال لم يكن يعبر عن حقيقة الواقع الجزائري باستثناء بعض الشهادات الدراسات العليا في علم الاجتماع، الاثنوغرافيا المغرب، عدد الطبعة لم يكن يملأ القاعات، لكن بحيث أن العلوم الانسانية في الماضي الاستعماري ميدان مخصص للنخب العالمية والارسقراطية إلا أنه وبعد الاستقلال حدث في النزعة أين تحولت القاعدة الاجتماعية للجامعيين المتوجهين إلى العلوم الانسانية أغلبيتها من الطبقات الشعبية[13].

---

[12]– ادموند هوسرل، أزمة العلوم الأوروبية والسوسيولوجية التراث سدتالية، ترجمة اسماعيل مصدق، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2008، ص 53.

[13]–Nadir Marouf, Les Fondamdents anthropologique de la norme maghrebine, Ed CASBAH, Alger, 2011, P260, 261.

أما على مستوى النخبة المثقفة في الجزائر فقد ظهرت اتجاهين كبيرين: الاتجاه الحداثي والاتجاه العروبي، بالنسبة للأول تبناه خريجوا المدرسة الفرنسية أمثال حمدان خوجة، بن جلول و فرحات عباس، مصالي الحاج، هذه النخبة الحداثية، كانت تتألف قاعدتها من معلمي الابتدائي وقادتها من خرجي الجامعة وعلى وجه الخصوص من خرجي كلية الطب والصيدلية من أمثال زعيمهما الكبيرين الطبيب بن جلول والصيدلي فرحات عباس، وحمدان خوجة (1775-1840) البرجوازي الحضاري والتاجر والمثقف كان يختلجه شعور مزدوج، شعور بأن الوجود الفرنسي ليس الشر كله شريطة أن لا يدوم إذ سيدفع المجتمع الجزائري إلى الحضارة الجديدة، وهذا ما يذهب إليه الاستاذ سعد الله أبو القاسم الذي أكد بأن ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر بل هو احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو احتلال التقدم للتخلف".

لقد اتخذ مقاومة حمدان خوجة الشكل السلم السياسي أي للمجادلة بالتي هي أحسن، أين تبنى فيه الطرق الأوربية في الاحتجاج والمطالبة أين أسس بصحبة بعض أعيان العاصمة لجنة المغاربة.

أما الاتجاه العروبي الذي شنه الأمير عبد القادر الذي وجد تجسيد له في الشيخ عبد الحميد بن باديس، هذا الاتجاه كان يتألف من خريجي جامع الزيتونة والجامع الأزهر، اهتمامهم انصب على الجانب الثقافي والتعليمي والديني بنشر التراث الثقافي العربي الاسلامي واصلاح الآداب والدين.

ليس من الصدفة أن يبرز إلى الوجود في هذه الفترة من القرن 20مثقوفن جزائريون يكتبون تاريخ بلادهم باللغة العربية ومثقفون جزائريون آخرون ينادون باللغة الفرنسية والاندماج في المجتمع الفرنسي، وليس من الصدفة في شيء أن يتبنى المثقفون جميعهم الوسائل والأساليب التنظيمية والتعبيرية السائدة في فرنسا سواء تعلق بالمجتمع المدني أو المجتمع السياسي فعلى المستوى السياسي وفي منتصف الثلاثينات أصبحت كل تيارات الرأي العام الجزائري متمثلة في الجمعات والأحزاب، فقد تأس تبعا لنجم شمال إفريقيا مارس 1926، وفدرالية منتخبي الأهالي (1927) وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 والحزب الشيوعي الجزائري 1936.

إن أكبر الشخصيات العربية الاسلامية لم تكن لها نظرة سلبية وتشاؤمية اتجاه لغة المستعمر مثلا الشيخ عبد الحميد ابن باديس صرح في هذا الصدد: " إن الجزائر تعتبر جزء من الميدان الفرنسي إنها دولة ذو طابع ثقافي عربي/فرنسي فالتعليم العام تعليما فرنسيا بالأساس ، إن المجتمع الاسلامي هو مطالب بتنظيم نفسه في ظل التعليم عربي عصري للقضاء على الجهل وتحقيق النهضة الثقافية العربية الاسلامية في الجزائر".

الأمير عبد القادر بالرغم من العداء السياسي والعسكري لفرنسا إلا أنه ينكر للدولة الحضارة الغربية في جمل الحداثة.

فلا أفصح في هذا المجال من رأي الزعيم مصالي الحاج الذي عرف التجربتين الجندية وتجربة العمل الصناعي والذي كتب في مذكراته: "فبعد ثلاث سنوات من الاقامة في فرنسا عند نهاية 1920 لم أعد مصالي الحاج الذي كنت قبيل الحرب ، وإنما أصبحت رجلا آخر " أما الزعيم الآخر الأمير خالد فقد تحدث بالنسبة للجزائريين عن مدرستين اثنتين مدرسة المصنع ومدرسة الجيش وفي الواقع فإن المهاجرين والمجندين لعبوا بصفة لإرادية غالبا وراء وسطاء الذين أوصلوا عناصر ثقافية أوربية كثيرة إلى المجتمع الجزائري، ففي سنة 1915يقول آخرون AGRONكان في فرنسا لأكثر من ثلث سكان الجزائر الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين عشرين وأربعين سنة سواء كعسكريين أو كعمال متطوعين".

وقد أسفرت ظاهرة التجنيد والهجرة عن نتائج اجتماعية والثقافية في غاية الأهمية، فقد ساهمت في تحقيق وطأة سلطة الجماعة على الفرج مما سمح له أن يمارس حريته ومسؤوليته، إذ تعرف الجزائريون أتوا من مناطق مختلفة ومتباعدة على بعضهم البعض وأدركوا أن مشاكلهم واحدة وأن

المستعمر هو أول أسبابها، كما مكنت الجزائري أن يعيش المساواة مع الفرنسيين في الورشات وساحة القتال[14].

أما بعد الاستقلال وفي مرحلة الجامعة الجزائرية المستقلة ظهر طرحين: الأول ضرورة الابقاء الجامعة الفرنسية في برنامجها ومستخدميها من أجل الحفاظ على المستوى الفكري والعلمي، أما الطرح الثاني تبنى طوي المرحلة الاستعمارية عن طريق اصلاح التعليم العالي، فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية والانسانية الاصلاح بدأ بإحداث قطيعة مع الأكاديمية L'académisne الذي اعتبرته الدولة أنه يحمل خطرين: الخطر الأول أن محتوى وأكاديمية العلوم الاجتماعية تحمل ايديولوجية استعمارية في خطابها ومحتواها وبالتالي ضرورة تأميم العلوم الاستعمارية كالانثروبولوجية، التاريخ، الفلسفة، الاثنوغرافيا..

الخطر الثاني للأكاديمية العلوم الانسانية أنها غير ملائمة مع متطلبات السوق العمل، وليس من العبث والصدفة أن تبدأ الاصلاحات التعليم العالي مع بداية سنوات السبعينيات (1971) بحيث أنها السنة تمثل رمزا "القطائع" فهي السنة التي تم فيها إصدار التسيير الاشتراكي للمؤسسات، السنة التي تم فيها تأميم المحروقات وأيضا إعلان الثورة الثقافية وفق ثلاثة شعارات ومبادئ:

التعريب: Arabisation، الجزأرة: Algéranisation، الديمقراطية Démocratisation

بالنسبة للتعريب الكلي للتعليم كان بداية في الابتدائي مع المدرسة الاساسية سنة 1980 ثم بعد ذلك الثانوية تليها الجامعة سنة 1984، السنة التي تم فيها تعريب كل العلوم الاجتماعية بقرار تعسفي من حزب FLN، كما أن التعريب كان من وراء انشطار وانقسام إيديولوجي بين ما يسمى بالنخبة المعربون والنخبة المفرنسون أو الفرانكفون، المعربون أغلبيتهم تكونوا في العواصم العربية كالقاهرة، تونس، دمشق، أو خريجي الكتاتيب والمدارس القرآنية ملمين باللغة العربية، أوكلت إليهم

[14]– جمال غريد، الجزائر ثنائية المجتمع وثنائية النخبة الجذور التاريخية، مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقي من أجل تنمية المجتمع بالجزائر بالتعاون مع مركز البحوث العربية للدراسات العربية والافريقية والتوثيق، القاهرة، تيميمون، 23-24-25 مارس، 2002.

بعد الاستقلال مهام ووظائف ذو طابع ثقافي وايديولوجي كالصحافة، التعليم، الأحزاب، النقابات، منظمات الجماهرية أو الاتحادية ...، أما الفرانكفون هم من اللذين تكونوا في فرنسا أو خريجو المدرسة الفرنسية تحصلوا على شهادات جامعية احتلوا فيها أماكن ذات مسؤوليات تنموية وصناعية وإقتصادية، منحتها إياهم الدولة الجزائرية تماشيا مع سياستها الصناعية (الثورة الصناعية) بتعبير على كنز فإن المهندسون والتقنيون هم المفرنسون بينما الاديولوجيون هم المعربون.

نفس السياسية انتهجتها الدولة الجزائرية عندما بادرت بإصلاح العلوم الانسانية قصد ملائمتها مع حاجيات البلاد مع إعطاء الاولية للبرامج التي تتضمن قيم الثقافة الوطنية، ولهذا الغرض لقد تم وضع لجان لتطوع Valontariat تعمل بالتوازي مع المؤسسات الرسمية للدولة، هذه اللجان كانت مكونة في أغلبيتها من طلبة العلوم الانسانية، الهدف منها تحقيق اندماج راديكالي في اللحظة العملية للتقرب من الحقائق والوقائع الوطنية:مشاكل الريف وعلاقتها بالإدارة، قضية المواصلات، الكهرباء.... إن المحتوى العملي لهذه اللجان يهدف إلى تجاوز المستوى البيداغوجي للخوض في التجربة السياسية لإنجاح الثورة الزراعية عن طريق إقامة حملات للتوعية في الميدان و المشاركة في بناء القرى الاشتراكية والعمل في الحقول الزراعية الفلاحية لتحقيق براغماتية المناهج وإهمال المفهوماتية Conceptualisme أما بخصوص العلوم والتخصصات التي من شأنها تحقيق هذا الدور فهي بالذات العلوم الاجتماعية، لأن هذه العلوم تحمل الايديولوجية واعتبارات اجتماعية لأن جل الطلبة المكونين لها ينحدرون من الشرائح الشعبية، هذا الدور اعتبرته الدولة بمثابة إعادة الاعتراف وتشريف العلوم الاجتماعية في دمجها في مشروع سياسي يثمن الثقافة الوطنية، أطلق عليه الدولة ما يسمى بالجزأرة[15].

[15] - Nadir Marouf, Opcit, pp 269-276.

VI. إشكالية العلم والدين:

لقد مرّ الفكر البشري في تطوره بعدة إشكاليات دارت بين العلم والدين منذ المرحلة اللاهوتية مرورا بالمرحلة الميتافيزقية إلى غاية المرحلة الوضعية، أثارها العديد من المفكرين والفلاسفة أمثال **أرسطو، إبن رشد، الغزالي، توماس الأكوني، سان أوغسطين، دوركايم، ماكس فيبر**.....قبل التطرق إلى إشكالية العلم والدين، يجب التعريف أولا لكلمة علم أو المعرفة العلمية التي هي نظام معرفي يتكون من مفاهيم ونظريات ومصطلحات يمكن التحقق منها بإثبات صحتها أو رفضها، إن كلمة علم مشتقة من كلمة Scientia التي تعني مسار فكري، كما تعني رفض المذاهب كما أن كلمة science تفيد في معناها كلمة إبستمي التي تتناقض مع الكلمة الإغريقية Doxa بمعنى المعرفة العلمية والأحكام المسبقة.

يمكن تعريف العلم بأنه نظام معرفي وضعي يعتمد على البرهنة، العقل و الاستكشاف، الجدلية والنقد، كما أنه نظام معرفي يعتمد على مبدأ السببية الذي يطرح سؤاليني: **كيف ولماذا؟**

أما بخصوص الدين أو المعرفة الدينية فهي عبارة عن نظام معرفي مستوحى إما من الله أو رسول، يقدم في شكل عقيدة تتبناه مؤسسة دينية.

الدين هو عبارة عن نظام معرفي روحاني مطلق غير قابل للتحقيق والتمحيص والنقد لأنه نظام معرفي فوق المحسوس، أفكاره مقدسة وخالصة[16].

لقد مر الفكر البشري (العلم) عبر ثلاثة مراحل نظر إليها عالم الاجتماع أوغست كونت: المرحلة الأولى هي مرحلة اللاهوتية أين بدأ فيها الإنسان يطرح تسؤلات غيبية ما فوق الطبيعة يفسر فيها نشوء الكون La religion cosmogonique، هذه الديانة التي سادت المجتمعات البدائية أو المشاعية العبودية مثلا حضارة الصين القديمة، الهند القديمة، اليونان..، فقد اعتبر طاليس

[16] - Angers Maurice, Initiation Pratique à la methodologie des sciences humaines, Ed casbah, Alger, 1997.

الماء هو أصل الوجود و المجتمع الهندي اعتبر أن براهما هو أصل الوجود، عموما لقد توجهت البشرية نحو السماء لإعطاء حلول والقضاء على حالة الفوضي الأولية والكوارث التي مرت بها البشرية.

من بين خصائص ومميزات التفكير والعلم اللاهوتي أنه كان **أسطوريا الأسطورة** التي يعني بها أنها تفكير محسوس سابق للمعرفة وليس بالتفكير الخرافي، بحيث أنّ البشرية لم تنتظر مجيء العلم حتى تفسر ما يحيط بها من ظواهر فمثلا سيدنا إبراهيم تفكيره كان أسطوريا ومحسوسا في بحثه عن أصل الوجود، أين توجه إلى الشمس أين قال هذا ربي تم الشمس غابت فقال ربّي أكبر تم توجه إلى القمر قال هذا ربي تم حجب القمر فقال ربّي أكبر إلا أن توصل إلى أن الله هو دائم الوجود.

ميزة اخرى للعلم اللاهوتي تتمثل في **تعددية الآلهة** أو ما **يسمى بالوثنية** والآلهة المتخصصة، فقد شهد المجتمع الاغريقي تعددية في الآلهة الصغرى وهي آلهة والسماء والأرض، الآلهة الكبري وهي آلهة الأولمب ويأتي **"زيوس"** في المقدمة وهو رب الأرباب والناس أجمعين وهو يتحكم في الظواهر الجويّة.

ثم تأتي بعد ذلك زوجته هيرا ربت النساء وكانت ربت الجمال ثم يأتي بعد ذلك **أفروديتAphrodite** وهي متخصصة في الحب والتناسل.

الميزة الثالثة للفكر اللاهوتي تتمثل في **الإحيائية Animisme**وهو مصطلح من مصطلحات العلوم الإنسانية والاجتماعية ويقصد به إعتقاد بدائي ساد المجتمعات البدائية الأولى والطبيعية على العموم كالحيوانات، النباتات، الرياح، الجبال، الوديان..... ويقول في هذا الصدد إدوارد تايلور ان الانسان القديم اراد تفسير بعض الظواهر التي كانت تلازمه في الحياة كالأشباح، الموتى وهذا ما دفعه الإعتقاد وجود الأرواح في جميع الكائنات الجامدة والحية.

بصياغة أخرى الإحيائية هي إعتقاد بوجود روح تسكن في الكائنات الحيّة إعتقاد بأنه لكل كائن من الكائنات الجامدة والحيّة لها روحا غير مرئية.

الخاصية الرابعة: للعلم اللاهوتي تكمن في **الفيتيشية** التي هي عبارة عن طلاسم وأشياء مادية أو حيوانية أو نباتية، يعتقد فيها الإنسان أنها تجلب السعادة والرزق وتطرد الأرواح الشريرة.

الميزة الخامسة للفكر اللاهوتي تتضمن **مفهوم "الطوطمية"Totémisme** التي هي عبارة عن الديانة البسيطة التي عرفها التاريخ البشري والإنسان البدائي.

يحمل الطوطم صفة القداسة من طرف القبيلة أو الجماعة أين يتخذ عدة أشكال حيوانية أو نباتية مثل قطعة خشب، رأس حيواني....، الطوطم يعادل العلم في العصر الحديث، في هذا السياق تحدث **دوركايم**عن الطوطم و churinga عند القبائل الأسترالية في كتابه الأشكال البدائية للحياة الدينية (1912)[17].

– **المرحلة الثانية:** التي مر بها الفكر البشري تتمثل في **المرحلة الميتافيزيقية** أين ظهرت فيها الفلسفة اليونانية تليها بعد ذلك الفلسفة الإسلامية (**الغزالي، إبن الرشد**) التي استلهمت منها أوروبا في العصر الوسيط مع **توماس الأكويني وسان أوغسطين.**

بالنسبة للمسلمين عرفت إشكالية العلم والدين مقاربات نقدية ونقلية **بين الغزالي وإبن رشد،** الأول في كتابه **"تهافت الفلاسفة"** قدم أولوية للوحي الديني والإيماني على حساب العلم والفلسفة، حسب **الغزالي** لا يوجد قانون للطبيعة أو علم يطلق عليه علم دنيوي، يوجد فقط إرادة إلاهية، لأن العقل قاصر لمعرفة ظواهر الدنيا والظواهر الإلهية، العلم عند **الغزالي** هو علم اليقين والله وحده القادر على معرفة المجهول، يقول**الغزالي** في تهجمه على الفلاسفة أنهم يحكمون بمنطق وتخمين من غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية ويستدرجون به ضعفاء العقول..."**إن وظيفة العقل والعلم هي تقوية الدين وإثبات قضايا دينية بوجود الله وإثبات صدق**

[17] - Gravitz Madleine, Lexiques des sciences sociales 4 eme ed, Dalloze, Paris, 1988.

النبوة، لأن الوحي معصوم ولا عصمة للعقل بحيث يكفي أن النبي قد أخبرنا بوجود الله كي يؤمن به الناس".

أما بالنسبة **لإبن رشد** في كتابه **"تهافت التهافت"** اعتبر أن العقل والفلسفة هي الطريق الوحيد لتفسير الدين، كما دعى **ابن رشد** للتعرف على الموجودات التي خلقها الله من خلال النظر الفلسفي وعن طريق النقد والبرهان بالاستدلال بآيات قرآنية وظفها **ابن رشد** لتعزيز طرحه. قوله عز وجل **"أدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة" أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء".**

يقول **إبن رشد** أن الله خلق الكون في قوانين ثابتة تركها للعقل الإنساني كي يتعرف عليها بواسطة الإستدلال والتجربة والقياس، لأن معرفة الله دون عقل يؤدي الى التعصب الفكري و من بين المسلمات التي دافع عنها إبن رشد خاصة والمعتزلة عموما نجد مايلي:

– مسلمة التنزيه المطلق لله ونفي ما يسمى بالتجسيم المادي لله Anthropomorphisme بالاستدلال بآيات قرآلآنية، **قوله تعالى:** ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ**﴾، وقال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ وبالتالي فإن **إبن رشد** نفى أن تكون صفات الله مشابهة لصفة المخلوقين والتأكيد على التمايز بين الخالق والمخلوق، وأن الله منزه عن المقدار والجهات ; المسلمة الثانية **لإبن رشد** في أن الله يعلم الكليات ولا يعلم بالجزئيات بحيث أن اله لايعلم الأشياء التي تعرض إليها عمر أوزيد وإنما يعلم بالإنسان المطلق.

– المسلمة الثالثة تتضمن مبدأ السببية وأن الإنسان هو خالق لأفعاله ونفى القدر السابق عن الله وإثبات عدالة الله، فلو كان الله خالق لأفعال الإنسان فكيف نفسر الجزاء والحساب يوم القيامة ولما كانت ضرورة لإرسال الرسل[18].

[18]– ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الأنصال، دار المشرق، ط2، بيروت 2000.

على غرار **إبن رشد والغزالي** عرف المسلمين طرق علمية ونهضة في علوم تجريبية أمثال **إبن النفيس** (**الدورة الدموية الصغري**) **قبل وليام هارفي** الذي اكتشف من جديد الدورة الدموية الصغرى بعد أربعة قرون من **إبن نفيس، إبن سينا** الذي وضع تصنيف الأمراض في موسوعته الطبية وكان سباقا في إكتشاف التخدير الطبيعي. **الرازي** الذي إكتشف علاج مرض الجذري والحصبة، **إبن الهيثم** أول من قدم وصف تشريحي للعين، أيضا الطبيب الجراح **أبو القاسم الأندلسي** هو أول من مارس عملية ربط الشراين في حالة البتر قبل Amboise Paré، بالإضافة إلى **الخوارزمي** رائد الجبر الذي ساهم في إدخال الأرقام العربية ذات الأصل الهندي إلى أوربا.

لقد شهد المسلمين أيضا نزعة علمية في مجال الفلك خاصة في **عهد الخليفة المأمون** الذي وضع مرصّد فلكي في بغداد لقياس علو الكواكب بواسطة ما كان يسمى أنذاك ب**الأسطرولاب وهو يعادل حاليا التلسكوب** أما بخصوص الترجمة فقد تم إنشاء بيت الحكمة .يوجد مجال علمي آخر تخصص فيه المسلمين يتعلق بالجغرافيا مع **البيروني في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية"** هذا الكتاب شكل قطيعة ابستمولوجية مع جغرافية **يطليموس** الذي وصف الكثير من الأمكنة أنها تقع شرق بعض البلدان وهي الآن تقع في غرب كثير من البلدان الآخرى، والسبب هذه الأخطاء يرجع إلى الإلتباس في معطيات وتقديرات الطول والعرض.

العرب عرفوا رائد في الفكر الإجتماعي هو العلامة **إبن خلدون** الذي أسس علم العمران البشري في القرن 14 قبل أن يصطلح عليه **أوغست كونط** بعلم الإجتماع في القرن 18، **إبن خلدون في كتابه "المقدمة"** حلل طبيعة العمران المغرب الأوسط من معاش وعصبية وملك، إلا أنه بالرغم من ذلك ظل مجهولا سواء بالنسبة للعرب أو الغرب إلى غاية مجيء المستشرقين أمثال المستشرق الفرنسي **دوسلانDeslane** الذي ترجم كتاب المقدمة إلى الفرنسية تحت إسم **Les Prolégomenes d'hbinkhaldoun** كان ذلك سنة 1862، كما عرف كتاب

المقدمة أول طبعة على يد المستشرق الفرنسي **E.quatrèmere سنة 1858** التي يعرف بطبعة باريس.

في الوقت الذي شهدت فيه الحضارة الإسلامية عصرها الذهبي و العقلاني كانت أوروبا في عصر الظلمات حيث تحول العلم إلى بدعة أو هرطقة بشعارات **"إعتقد و لا تسأل" "خارج الكنيسة لا خلاص له"** إلا أنه بالرغم من ذلك ظهرت في عصر الوسيط بعض المحاولات للتوفيق بين العلم والدين أمثال **طوماس لأكويني، سان أوغسطين** إلا أن محاولتهما ظلت تقدم الأولوية للدين والنقل على حساب العلم والنقد، في هذا السياق يوجد مقولة **طوماس لأكويني: "إن المعرفة الطفيفة جدا التي مكننا إكتسابها عن الأمور الدنيا لهي مستحبة أكثر من أكبر علم بالأشياء الدنيا"**[19].

سان أوغسطين هو الآخر حاول التوفيق بين العلم والدين في كتابه "مدينة الله" أين اعتبر أن العلم يقوي الإيمان والدين، كما تحدث عن مدينتين مدينة الخير وهي المدينة الله ومدينة الشر وهي مدينة الأرضية، المدينة السماوية أو مدينة الخير يسودها حب الله حتى ولو كان بإحتقار الذات، أما مدينة الأرض فيسودها حب الذات حتى ولو كان معصية الله، فالناس يعيشون فيها في الخطايا والتنافس والعنف[20].

لقد ظلت أوروبا في عصر الانحطاط العلمي إلى غاية أواخر القرن 15 وبداية القرن 16 أو مايطلق بعصر النهضة: الذي تزعمه فلاسفة ومفكرين وعلماء؛ أمثال: (**ميكافيلي، كوبرنيكوس، قاليلي، ديكارت، بيكون**) الذين حررّو العلم من الدين، فقد قام **كوبرنيكوس** في كتابه **"دورة الأجرام السماوية" 1530** بإحداث قطيعة فلكية وفيزيائية مع نظرية مركزية الأرض التي تبنها الإغريق اليونان مع بطليمس و ارسطو الى غاية العصور الوسطى اين واصلت الكنيسة الدفاع عن

---

[19]– روجيه غارودي، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الرقى، بيروت، 1970، ص 96-100.

[20] - Michel Lallement, Opcit, P 23.

هذه النظرية والتي لها مسلمات أهمها أن الأرض هي مركز الكون، الأرض ثابتة لا تدور، الأرض مسطحة الشكل ليفنذ كوبرنيكوس وقاليلي هذه النظرية في كتابه **"حوار بين النظامين العالميين" Dialogue sur les deux grandes systemes du monde 1632**"ويأتيا بنظرية علمية فزيائية جديدة يطلق عليها بنظرية مركزية الشمس "**Héliocentrisme**" من بين مسلماتها أن الشمس هي مركز الكون، الأرض كروية الشكل ثم الأرض تدور.

ديكارت هو بدوره أحدث قطيعة بين العلم والدين في كتابه: " **Discours de la méthode 1637**" أين اعتبر أن الشك أو ما يسمى بالكوجيتو هو دليل الوجود: **"أنا افكر إذن أنا موجود"** بمعنى حرية الأنا المفكرة عن نحن الجماعية (**الكنيسة**)[21].

فرنسيس بيكون في كتابه **"الأورغانوم الجديد" Novum organum**دعى بدوره لتخليص العلم من الدين والأوهام أو الأوثان وهي ثلاثة :

1- أوهام الكهف.
2- أوهام المسرح.
3- أوهام العقل.

3- المرحلة الوضعية:

تعتبر الوضعية المرحلة الثالثة من تطور العلم، المرحلة التي تقترن مع ظهور المجتمع الصناعي (القرن 18) والتطور العلمي، أين أصبح رجال الصناعة ورجال العلم أو التكنوقراطيين بديلا لرجال الدين والإقطاع، هذه المرحلة قد نظر إليها

[21] - Bellakhdar Mezouar, Religion et lieu social en Algérie, thèse de doctorat, Université de Tlemcen, 2004.

كبار الفلاسفة و علماء امثال ماكس فيبر الذي وصف العالم الوضعي بالعالم الذي فقد قدسيته الدينية Désenchantement du monde"**نزع القداسة وفك السحر عن العالم**" هذا المصطلح الذي إستعاره ماكس فيبر من الفيلسوف الألماني نيتشه، هذا الأخير له عبارة شهيرة إستخدمها لتفسير العالم الوضعي هي عبارة "**موت الله**" التي لا يعني بها موت الله بالمعنى الحرفي للكلمة لأن الله مطلق لا يموت، موت الله يقصد به نيتشيه موت نمط من أنماط التقديس قد مات وإنهار يقصد الكنيسة وحل محلها تقديس حديث هو تقديس العلم وتأليه العلماء والصنّاع .بالمقابل دلك يستخدم ميشال فوكو عبارة موت الانسان التي يعني بها موت انسان العصور الوسطى وحل محله الإنسان الحديث إنسان الثورة الفرنسية[22].

VII. علاقة العلم بالسياسة و الإيديولوجية:

لقد إهتم كبار المفكرين والفلاسفة في العلوم الإنسانية والإجتماعية سواء في التراث الإسلامي (**الجاحظ، إبن الرشد، إبن خلدون، أبو حيان التوحيدي**..)

أو في التراث الأوروبي الغربي (**ميكافيلي، كارل ماركس، ماكس فيبر، دوركايم، إميل زولا، فولتير، بيار بورديو**...) بإشكالية العلم والسياسة ومدى تأثيرها على حياد وموضوعية العالم خاصة في العلوم الانسانية كون ان العالم هو ابن بيئته الإجتماعية يؤثر ويتأثر بما يحيط به من ظواهر وأحداث في مجتمعه.

بالنسبة للتراث الإسلامي فإن إشكالية العلم والسياسة تم طرحها عند الجاحظ الذي كان يلح على ضرورة تحالف مذهبه المعتزلة مع الحكام لضبط سياسة العوام، وإبعادهم من المشاركة في السياسة، إذ يقول: "**أن يرجع الطيان إلى تطينه والحائك إلى حياكته والملاح إلى ملاحته والصائغ إلى صياغته وكل إنسان إلى صناعته**".

---

[22]– محمد أركون، الفكر الاسلامي، دار القصبة للنشر ، الجزائر، 1993.

لقد ظل الجاحظ يقدم نصائحه السياسية إلى أولياء أمره إتجاه العامة؛ إذ يقول في هذا الصدد: **"قاربوا هذه السفلة وباعدوها وكونوا معها وفارقوها...."**.

يقول أيضا: **"أنه ليس في الأرض عمل أكد لأهله من سياسة العوام"**، لقد خدم الجاحظ سياسة الدولة في عهد المأمون أين سخر قلمه لخدمة مذهب الدولة ووصل به الحد إلى غاية تأليفه لكتاب أطلق عليه **"بالإمامة"** أهداه إلى الخليفة المأمون.

- **أبو حيان التوحيدي** هو بدوره اعتبر أن العامة هم مبعدون من السياسة فهم مجرد مادة للسياسة وليس فاعلين لها أين وصفهم بالرعاع ونصح السادة بقوله: **" لا ترفهوا السفلة فيعتادوا الكسل والراحة ولاتجرؤوهم فيطلبوا الترف والشغب"**.
- **إبن خلدون** هو بدوره كان مؤرخا ومفكرا اجتماعيا إلا أنّ هذا لم يمنعه أن يكون له إلتزامات سياسية في عهد الدولة الحفصية كوزير مقربا للسلطة، في هذا السياق يقول: **"إن العلماء أبعدو الناس عن السياسة لكن القلائل منهم الذين استطاعوا التأثير في واقع السياسة" كما انتقد المؤرخين في كتابتهم و سردهم لتاريخ العرب والمسلمين بغية التقرب إلى أصحاب المراتب والسلطة بالثناء والمدح، الأمر الذي أدى بهم إلى التحيّز والذاتية"**[23].

أما بالنسبة للعلاقة بين **العلم والسايسة في الأدبيات الكلاسيكيةالغربية** نلاحظ أن المسألة قد تطرق إليها كبار الفلاسفة والمفكرين الإجتماعيين منذ عصر النهضة بداية مع **ميكافيلي** في كتابه **الأمير** الذي أهداه إلى الأمير Lauren de medices لغرض توحيد ايطاليا و اخراجها من حالة الفوضى والدويلات والحروب التي عاشتها في القرون الوسطى بمعنى أن **ميكافيلي** كان له حس علمي وسياسي وفي نفس الوقت تأثر ببيئته الإجتماعية، الأمر الذي أدى به إلى التساؤل في كتابه

[23]– عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1993.

الأمير: **كيف ننجح في السياسة؟ ماهي الوسائل العملية والتقنية التي تمكن الأمير بالحصول على السلطة والمحافظة عليها؟**

من بين النصائح والصفات التي قدمها مكيافيلي للأمير لتحقيق وحدة إيطاليا نجد ما يلي:

– أن يكون الأمير قويا ومهاب كالأسد.

– أن يكون رؤوفا وقاسيا ومن هنا ينشأ سؤال مهم وهو أيهما أنفع للأمير أن يُحَبَ أكثر مما يخشى أم يهاب أكثر مما يحب؟ الجواب الذي قدمه ميكافيلي هو أن ينبغي له أن يكون محبوبا مهابا حيث يصعب الجمع بين الحالتين، فإذا إحتاج الأمير لأحدهما فالأفضل له أن يهاب، لإن الناس والرعية سرعان ما تتنكر الجميل.

– أن يكون الأمير بخيلا وكريما وأن يكون وفيا وغدار بالإضافة إل صفتا الحيلة والخدعة.

في مجال الأدب نلاحظ أن أكبر الأدباء كان لهم تدخل سياسي في شأن بعض القضايا السياسية والاجتماعية التي كانت مطروحة في عصرهم نتحدث في هذا الصدد عن:

- **إيمل زولا Emile Zola** وقضية **الجينرالDreyfus** ذوي الأصول اليهودية الذي حكمت عليه العدالة الفرنسية بالإعدام سنة 1894 بتهمة التجسس لألمانيا وتسريبه وثائق سرية ليتبين في الأخير أن **Dreyfus** كان ضحية تصفية حسابات تاريخية بين فرنسا وألمانيا، الأمر الذي أدى بإميل زولا بالدفاع عن برائته في الجريدة الفرنسية اليومية التي يطلق عليها إسم"**Aurore**" عنون مقالا فيها بإسم"**!...J'accuse**" "**أندد...!**" في رسالة وجهها إلى فرنسا: "**في الأيام الفضيعة التي نمر بها في الوقت الذي حجب فيه الضمير العمومي، أتوجه إليك يا فرنسا يا وطني ويا بلدي**".
- **فولتير Voltaire**هو أيضا كان له روح أدبية وعلمية إلا أن هذا لم يمنعه أن يكون له إلتزام سياسي في قضية "**Jean calas**" التاجر المسن ذو الأصول البروتستانتينية الذي

حكمت عليه فرنسا بالحرق بتهمة محاولة قتل إبنه الذي أراد أن يرتد إلى الديانة الكاتوليكية، الأمر الذي أدى بتدخل فولتير في القضية لإثبات برائته وأن الأمر يتعلق حقيقة بمأساة وتعصب ديني أشار إليه في كتابه الأدبي **"التسامح" 1763** الذي دعى فيه فولتير إلى التسامح بين الأديان ونبد كل أشكال التطرف.

- إميل دوركايم في مقاله المعنون بـ: **"النخبة المثقفة والديمقراطية 1904"** يقول ويكتب مايلي: **"إن الكتاب والعلماء هم مواطنين ومن البديهي أن يكون لهم الواجب الضيق المشاركة في الحياة العمومية، يبقى فقط بأي شكل ومقدار"**

إنطلاقا من هذه المقولة يتبين لنا بأن الممارسة السياسية للمفكرين هي قدر من نوع خاص بحكم المعرفة العامة للعلماء لتطور مجتمعاتهم[24].

- **سان سيمون: (من رواد الوضعية)**

كان له موقف معارض ومحايد تجاه مجال السياسة ورجال الدين عموما وما يدل على ذلك في كتابه **"المنظم والمثل" L'organisation et la parabole**

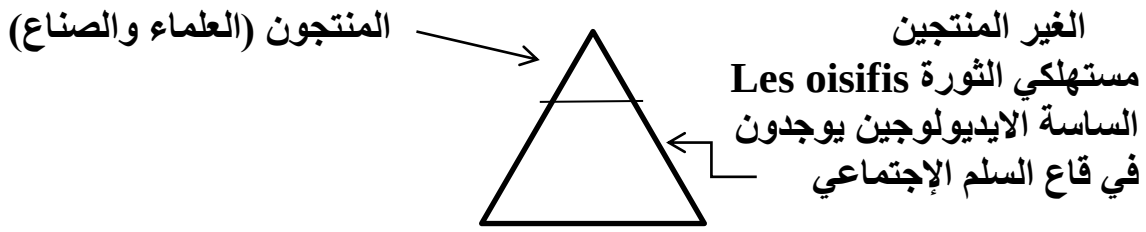

يقوم المثل السّانسيموني على إفتراضين أن تفقد الأمّة الفرنسية فجأة فيزيائها، كيميائها، أمثالهم من العلماء والشعراء والحرفيين.

يتساءل سان سيمون ماذا يعني هذا؟ إذ لم يعني فاجعة وشرا هائلا لا يمكن تعويضه إن خسارة هؤلاء الفرنسيين الأكثر إنتاجا بشكل أساسي الذين يجعلون هذه الأمة منتجة.

---

[24] Max weber, Le savant, et le politique, EDENAGEL, Anis collection science humaines diriger par Ali kenz, 1991, pp 12- 14.

إن خسارتهم تعني الحكم على الأمة على أن تصبح جسدا بلا روح.

* **الإفتراض الثاني**: أن تفقد فرنسا في نفس اليوم كل الضباط التاج، وزراء الدولة ومستشاريها وكبار رجال الدين... فماذا سيحدث؟

يعلق **سان سيمون** على هذا الافتراض بهدوء. أن هذا الحدث سيحزن الفرنسيين، لإنّهم طيّبون لم يسبب لهم الحزن إلا من زاوية عاطفيّة.

لأنه لن ينجم عن ذلك أي ضرر سياسي للدولة في حالة فقدانهم، لأنّه من السهل تعويضهم، لكن من العسير تعويض العلماء...

وقد أدخل **سان سيمون** السجن بسبب هذه المقولة وكاد ان يتم إعدامه.

- **كارل ماركس: (من المعارضين البرجوازية)**

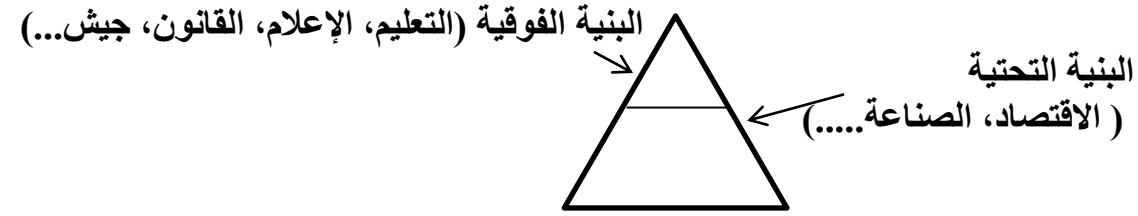

كارل ماركس من المفكرين الدين اتخدوا موقفا معارضا للبنية الفوقية حسبه إن الدولة صنعت القانون، الإعلام... للدفاع عن مصالحها. الفلسفة التي يسمها ماركس بالإيديولوجية والتي تمثل تبرير (**إضفاء الشرعيّة**) مطالح إقتصادية، سياسية للطبقة البرجوازية، في هذا الصدد له مقولة يتّهم فيها فلاسفة الأنوار (**العقد الاجتماعي**): **"إنّ الفلاسفة لم يفعلوا شيئا حتى الآن سوى تفسير العالم، أما اليوم فإنهم مطالبون بتغييره"**.

يرى ماركس أن الفلسفة وعي مزيّف **La conscience fausse** إذ يعتقد الفلاسفة بأنهم يتحدثون عن المواطن بوجه عام الا انهم في الحقيقة يتحدثون عن إنسان الطبقة المسيطرة (**البرجوازية**) والمواطن الخديم والإنسان الأنانيّ، كما إنتقد ماركس المواد القانونية التي نصّ عليها ميثاق الإنسان والمواطن الذي صدر في 1789، حيث إعتبرها حقوق أفراد المجتمع البرجوازي، بمعنى أن الإنسان المفصول عن الإنسان. (**الإنسان البرجوازيّ مفصول عن الإنسان البروليتاريّ**)

يقول أيضا: " **لا يمكن الفلسفة أن تؤدي دورا إيجابيا سوى دور واحد وهو أن تكون فلسفة ثورة اجتماعية تهدف إلى تغيير الوضع النهائي وتحقيق مجتمع متساوي خالي من الصراع الطبقي**". (**مبدأ الشيوعيّة**)

يجب أن تكون هذه **الفلسفة "فلسفة عمل لا فلسفة نظر ويجب أن تكون فلسفة الطبقة البروليتاريّة الفلسفة لقب الوضع وتغييره بالثورة عليه وليس بتبريره. لقد قام ماركس ايضا بتصنيف الإديولوجيا ضمن البنية الفوقية**".

البنية الفوقية:إعتبرها ماركس وعي مزيّف.

تعريف الإديولوجية عند ماركس: هو نظام من الأفكار والأحكام المسبقة تستخدم لغرض وصف وتبرير وتفسير وضعية إجتماعية، سياسية لأفراد أو جماعة.

وعرّفها قي روشي أنها "**عبارة عن نداء أو دعوة إلى حالات نفسية قويّة تمرّ بها الشعوب في حالات، الفوضى، القلق، الثورات**".

وهي أيضا توجه دعوة للضمير نحن Nous بمعنى أنها تحكم الجماعة.

تستخدمها الدولة الجماعات المهنية (**النقابات**)، البرلمان، الجماعات السياسية، الحركات الشّبانّية، الحركات الإسلامية...

يمكن تصنيف الإديولوجية إلى:

1- **رجعية**:(العودة إلى السّلف، التراث)؛ مثل: إيديولوجية الفيس.

2- **التقدمية**:(فلاسفة العقد الإجتماعي)؛ مثل: الحداثة والتغير.

3- **الإصلاحية**؛ مثل: ج.ع.م.ج.

4- **الوطنية؛** مثل: مصالي الحاج وطنية راديكالية.

5- الأممية، العالمية.

الماركسية الشيوعية في القرن 19

قال كارل ماركس:**"توحدوا أيها البروليتاريون" (الثورة الشيوعية في الصّين)**[25].

- **ماكس فيبر:**

اما الإيديولوجية عند ماكس فيبر يصطلح عليها بـ"العنف المشروع La violence légitime'".

"ليس بعنف مادي أو قهري بل هو عنف رمزي و لين، وهذا العنف هو خضوع طوعي وعفوي لأفراد الدولة دون استخدام القوّة والقهر ويتحقق ذلك بواسطة "مؤسسات إيديولوجية" وأجهزة البيروقراطية؛ مثل: البرامج التربوية، برامج سكنّية، الجامعات؛ مثل: لانامANSEJ.

العنف المشروع"هو قدرة الدولة على فرض الطّاعة والخضوع على أفراد المجتمع والشعب دون إستغلال القوة المادية والقهرية"[26].

بيير بورديو هو بدوره طرح اشكالية العلم بالسياسة و الاديولوجيا

قال: **"من تقاليد المثقف أن يفتح فمه" (La tradition d'ouvrir sa gueule)**

[25] - Rocher Guy, Introduction a la sociologie generale de changement social, EDHMH, France, 1968, PP 88-96

[26]- لوران فلوري، ماكس فيبر، ترجمة محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص87.

من خلال هذه المقولة يتبين أن دور المثقف حسب بورديو الذي لديه مهنة تاريخية أن يعمل على رفض الحتمية الاقتصادية.

على المثقف أنّ لا يبقى في برجه العالي، أن يشارك في الحركات الاجتماعية.

من خلال المقولة أراد بورديو أن ينشأ حركة من النخبة المثقفين للمشاركة في الحركات الاجتماعية والثورية(**إضرابات، انتفاضات**)، **وللمثقف إلتزمان**:

1- **إلتزام ثقافي**: بصفة أنّه كاتب، عالم...

2- **إلتزام سياسي**: ينتقد النموذج النيوليبيرالي(**النظام العالمي الجديد"بورديو عارض العولمة الإقتصاديّة"**)

هذا النموذج النيوليبرالي أدى إلى حدّ تدخل الدولة في الشؤون الإجتماعية(**السكن، الصحة، التربية..."قطاعات غير منتجة لأنها خدماتيّة"**).

النظام العالمي الجديد حسب بورديو قدّم أولوّية الحقوق الاقتصاديّة (**العقارات، المنافسة، المصالح**...)على حساب الحقوق الاجتماعية.

بصياغة أخرى أراد **بورديو** أن ينير ضمائر المثقفين وأن يوعي بالمخاطر النيوليبرالية وعواقبها.

شارك بوردية في ثورة ماي 1968وكان طالبا من شعارات و مطالب هاته الثورة "**من الممنوع أن تمنع**" الدفاع عن مجتمع الحريات (**حرية المرأة، حرية الإجهاض، حرية الصحافة، حرية الحركة النسوية**) .